جوته

GOETHE

نشأته وحداثته ١٧٤٩ — ١٧٧٥

ولد يوهان فولفجانج جوته في اليوم الثامن والعشرين من شهر اغسطس سنة ١٧٤٩ بمدينة فرنكفورت الواقعة على نهر الماين . وكان ابوه (يوهان كاسپار) رجلاً موسراً انعم عليه بلقب مستشار قيصري وتوفي في سنة ١٧٨٢ فورث جوته عنهُ قامته وحبهُ للنظام وميله الى السكينة والجد وذلك عماد الفن واساسه . وكانت امه (كاترينا الزابت) ابنة شيخ بلد تكستور وقد توفيت سنة ١٨٠٨ فورث عنها ولدها ما كان لهُ من خيال رائع واستعداد كبير للقصص . اما مدينة فرنكفورت التي ولد فيها فمعروفة بتجارتها المنتشرة ومواسمها التجارية السنوية يقصدها الناس من جهات بعيدة للعرض والطلب فتكثر بها الحركة والاخذ والعطاء . وقد اشتهرت بما بها من تماثيل وآثار تاريخية . ولابد ان يكون كل ذلك مما ساعد جوته في حداثة سنه على الاستفادة العلمية والدرس خلال مشاهدته لما يجري حوله فبعث في نفسهِ ما كمن فيها من نبوغ في فرض الشعر . وكان مما رأى وشاهد مادة لا تنفد اعتمد عليها في مستقبل حياته . وحدث حينئذٍ حادث هام كان لهُ كبير الاثر في جوته وذلك ما كان من حرب السبع سنوات المعروفة التي ادت الى احتلال الفرنسيين لمدينة فرنكفورت في اثنائها فاقام احد ضباط فرنسا (الكونت توراتك) في جانب من منزل جوته . وقد اتى الشاعر على ذكر ذلك الضابط في مؤلفهِ القيم الكبير (الشعر والحقيقة) وكان الكونت مولعاً بالفنون فاخذ يتخير صوراً عديدة من مهرة المصورين ويصدرها الى بلده فسنحت الفرص للفتى جوته ان يكون على مقربة من الفن ومن اولئك الفنانين وان يعلم عن التصوير ما قد علم

ولما جاء الفرنسيون الى تلك المدينة (فرنكفورت) اقيمت فيها دار تمثيل فرنسي كان يمثل فيها خير ما كتب مشاهير كتاب المآسي الفرنسيين . ورأى جوته ذلك فعلق بفن التمثيل ومال اليهِ وعرف تلك المؤلفات الخالدة كما ألمَّ بقواعد كتابة الروايات التمثيلية عند الفرنسيين . واسترعى انظاره ما كان اثناء الحرب فألمَّ بالاحوال السياسية بالمانيا . وقد سرَّ وانشرح صدره لانتصار ملك البروس اذ كان ابوه من شيعة فريدرك الكبير وكان ممن يميلون اليهِ . ولما كانت سنة ١٧٦٤ انتخب يوسف الثاني ليضع تاج الملك فوق رأسهِ فاتسعت مدارك الغلام وانفسحت دائرتها عما قبل . وكان ابوه هو الذي يتولى تعليمه بنفسه وغرضهُ ان يبعث في نفسهِ حبَّ

الاعتماد على النفس والاستقلال في البحث والعمل . ولم يكن يرى ان يحشو رأسه حشواً لا يسيغهُ فهمه وادراكه . وحاول جوته ان يكتب قصته في خطابات وقد فعل وكتبها في سبع لغات هي اللاتينية والاغريقية والفرنسية والانجليزية والايطالية والالمانية وبلهجة يهود فرنكفورت فكان ذلك بمثابة تمرين له على اساليب تلك اللغات واصطلاحاتها . وقد ادت معرفته للهجة يهود المانيا الى دراسة العبرية وجد في الاشتغال بالتوراة والانجيل وعني بقراءة ما كتبهُ شعراء الالمان ولاسيما مؤلفات الشاعر كلوبشتوك . وكان لقصة المسيح التي نظمها هذا الشاعر المذكور اثر كبير في نفس الغلام . وقد نظم جوته وهو في حداثته بعض الانشيد والاغاني الدينية نذكر لهُ اقدم ما يعرف لهُ من مؤلفاته كلها المسماة (سياحة المسيح بجهنم) . ولما درس العبرية وآدابها نظم قصيدة اعتمد في مادتها على التوراة وهي قصة يوسف واخوته

ولما كان ابوا جوته في يسر وغناء فقد كانت العناية بولدهما كبيرة فنشأ مرعيَّ الجانب ملحوظاً بعين رعايتهما . وفي سنة ١٧٦٥ انتظم في سلك جامعة ليبتزج ليدرس القوانين ولكنهُ سرعان ما مل دراسة الحقوق ونبا عن محاضرات التشريع التي لم يمل اليها ابداً . على ان المحاضرات الفلسفية كان لها حظ كبير من نفسه . ولم تستطع دروس جلرت في الاخلاق ان تجذب انظاره اليها لكي يداوم على سماعها . ولكنهُ رأى في مجالس ليبتزج وفي اوساطها من عادات طيبة ورقة اهل الحضر بها وانس في اهلها الذين تعرف اليهم من اللطف ما حبب اليهِ تلك البيئات . وعدا ذلك شرع يدرس الفنون بهمة وعزم وجلد وقد ذكرنا ان الفرص كانت قد سنحت لهُ للالمام باصول الفن وهو لا يزال في منزله الذي رأى فيهِ نور الحياة

وكان معلمهُ فريدريش ادم اوزر مدير مدرسة الفنون بليبتزج فحضر عليهِ جوته دروسهُ في تاريخ الفنون — فأفهمهُ ما احتوت عليهِ مؤلفات فنكلمان و (لاكون) لسنج . ثم انهُ زار متحف الصور بمدينة درسدن فازداد فهمه للفن كثيراً . وقد كتب جوته في ليبتزج مأساتيهِ الاوليين نشرت اولاهما سنة ١٧٦٧ واسمها (مزاج المحبين) ونشر الثانية في السنة التالية واسمها (الشركاء في الذنب) . والاولى قطعة تمثيلية منظومة في فصل واحد اشخاصها رعاة وفيها يسرد الاسباب التي جعلت حبال مودته وحبه لانا كاترينا Schoenkopf شونكوبف تتصرم غيرة . وكان جوته قد احب (كيتشن) هذه وهي ابنة خمار . اما المأساة الثانية ففي ثلاثة فصول وقد كتبها لما فطن لفساد العادات في حياة الاسر التي عرف بعضاً منها وهو في مسقط رأسهِ وبعضها في مدينة دراسته هذه . وقد غلب الذوق الفرنسي والشكل الفرنسي على القطعتين ومع انك ترى جوته يحافظ على الاوضاع المنقولة فانت تلحظ منهُ الكياسة واللطافة في شعر صباه وترى ما اختصت بهِ طبيعتهُ الشعرية من لطف وانهُ ينتج من نبع صاف غزير . وتلحظ من هاتين المأساتين خير دليل على ما كانت بعض الدوافع الداخلية تحرك في نفسه ان يعرب

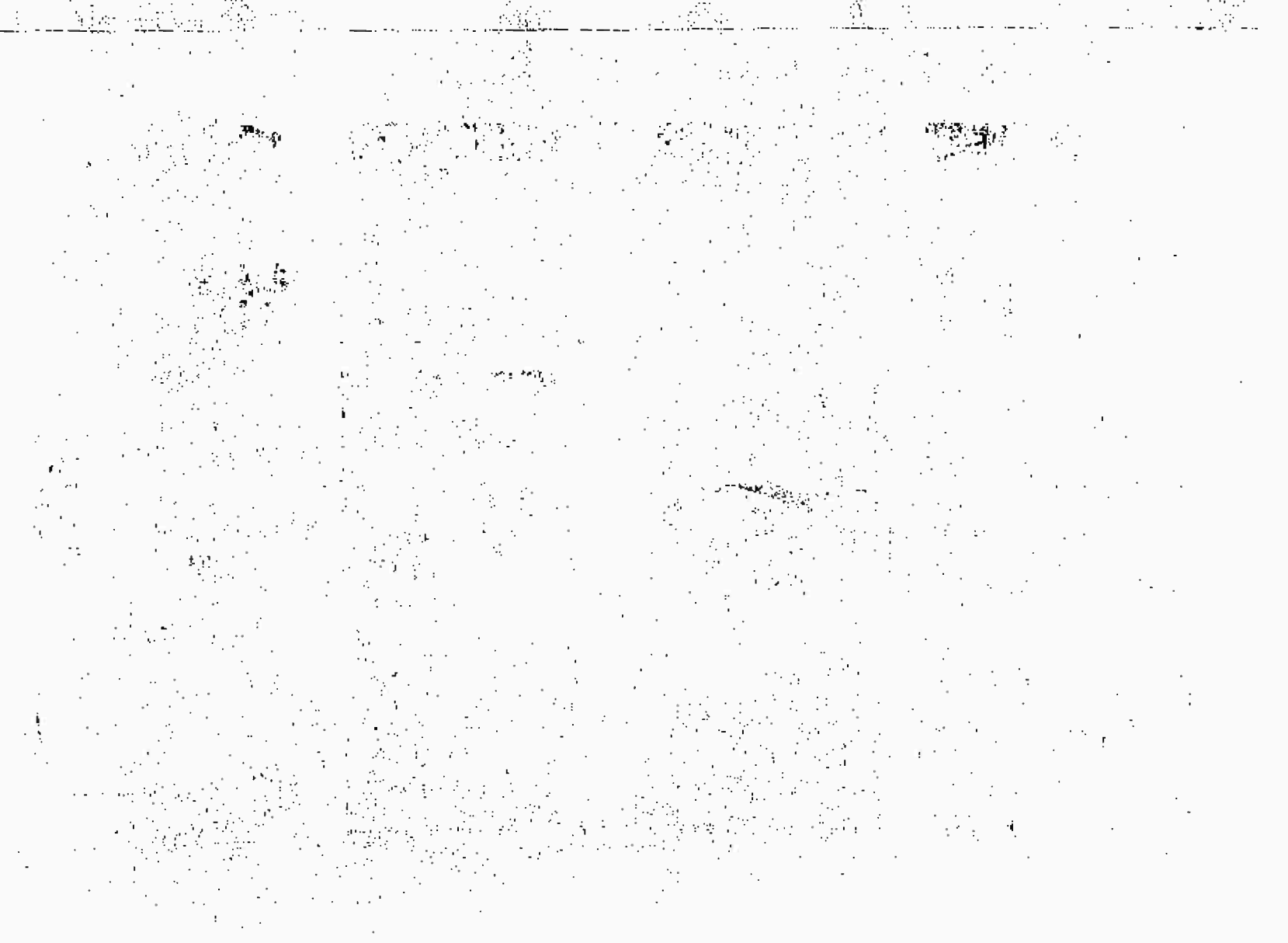

مما يشعر به من سرور وألم في قالب شعري ليخلص مما كان بنفسه كما لو انه رفع عن عاتقه حملاً ثقيلاً . وقد اطلق هو على تلك القصائد والمقطعات اسم (قصائد المناسبات) او (اجزاء اعتراف كبير) . ولم يدخل هذه القصائد او الاجزاء الصغيرة في ديوانه الذي ظهر تحت عنوان (انتا) سنة ١٧٦٢ وكان قد نظمه في مدينة ليبتزج وقدمهُ لصاحبته (كيتشن شونكوبف) ؛ وهو مجموعة قصائد غرامية قصيرة نحا في بعضها منحى الفرنسيين والايطاليين وكانت حافلة بأمور شهوانية ولكنها رقيقة لطيفة . ولما طبع مجموعته المسماة (ميخائيلس) سنة ١٧٦٩ لم يدخلها في عدادها

وفي سبتمبر سنة ١٧٦٨ عاد جوته من ليبتزج الى فرنكفورت لانهُ كان مريضاً اثر نزيف دموي حدث له فعاد الى بيت والديه ليستعيد فيه قوته . ولما برأ من مرضه تعرف بصديقة لوالدته تدعى الآنسة فون كتنبرج كانت على تقوى وصلاح مزيف غريب الشكل كما اتصل بطبيبه ايضاً اتصالاً قويًّا وكان هذا الطبيب كتب من كتب الكابالين المشحونة بالاسرار كما كانت له كتب في الكيمياء القديمة . فأجرى بعض التجارب في هذا الباب ترى آثارها في مأساته (فوست) . ولما استردَّ قواه وعادت اليه عافيته وجدة شبابه عاد في ربيع سنة ١٧٧٠ الى شتراسبورج ليتم دراسة الحقوق والقوانين بناء على رغبة ابيه فحضر محاضرات الطب والعلوم الطبيعية الى جانب المحاضرات القانونية وقد كان جلُّ زملائه على المائدة من طلاب الطب

ويجب ان لا نغفل ذكر اسم رجل عظيم كان له اكبر أثر في جوته في مدينة شتراسبورج. ونعني بذلك هردر (Herder) وكان اكبر منهُ بخمس سنوات الا انهُ امتاز بخبرته ومعارفه واستقلال الرأي ونضوجه . وقد قال جوته عن علاقته بهردر أنها كانت اهم حادث له اكبر الاثر في نشوء افكاره وروحه وطباعه . وهنا عرف ان النظم انما هو لغة الدنيا والشعوب وانهُ ليس بميزات خاص لبعض الرجال المهذبين. وقد اشار عليه هردر بمطالعة شعر الشعوب الاخرى كشعر العبرانيين وهوميروس واوسيان وبالاطلاع على درر شكسبير وقصة واعظ ويكفيلد التي كتبها اوليفر جولد سميث سنة ١٧٦٦ وهي من ابدع القصص باللغة الانجليزية . وترى جوته تعلق هناك بحب (فريدريكه) ابنة احد الوعاظ المسمى بريون فون سيسنهايم وهناك نسمعهُ يتغنى وينشد نخبة من أرق اغانيه العذبة الجميلة

وقد كان لبيعة شتراسبورج في نفسه كبير الاثر فقد كان لا يزال متأثراً بما يقال ضد طراز القوط في العمارة ولكنه لما رأى البيعة اعجب بها أي اعجاب وعرف روح فن البناء الالماني القديم . وترى ذلك الاثر في نفسه في مقالته التي كتبها على فن البناء الالماني . ولما أتم دراسة القوانين وحصل على اجازة العالمية في الحقوق سافر الى فرانكفورت ولبث فيها قليلاً

وهناك قابل صديقه شلوسر وكان قد تعرف به في ليبتزج وهو الذي اصبح فيما بعد حماه . فقدمه الى المستشار الحربي (مرك) بمدينة دارمشتادت وكان لهذا اثر كبير في نفسه

ثم ذهب الى فتزلر سنة ١٧٧٢ واشتغل في محكمتها مدة اربعة شهور ثم عاد الى فرنكفورت وبقي في دار ابويه الى سنة ١٧٧٥ . وكانت هذه المدة المحصورة بين سنة ١٧٧٢ وسنة ١٧٧٥ هي ما يعرف (بزمن العواصف والاندفاع) لتآليف جوته ويرى البعض ان هذا الزمن هو خير الازمنة لما انشده من شعر . فترى الافكار العظيمة تتزاحم في رأسه . ولما كان الهدوء الداخلي ينقصهُ فانك تراه يبدأ النظم او الكتابة في موضوع ثم لا يتعدى ما كتبه إلاّ الجزء الاول فيهِ كما حدثه كثيراً فانهُ لم يتم (پرومتيوس) و (محمد) و (اليهودي الابدي) كما انهُ قيد جزءاً يذكر في خبر ما اخرج للناس ونعني بهِ (فوست) كما انهُ كتب اجزاء من (اجونت) . إلاّ أنه مع هذا قد اتم مؤلفين عظيمين فأصبحت له زعامة الشعر وامارة القريض . ذلك انهُ انتهى في سنة ١٧٧٣ من مسرحيتهِ (جتزفون برليشنجن) وانتهى من كتابة جزء كبير من قصة (آلام الشاب فرتر) سنة ١٧٧٤

أما (جتزفون برلشنجن) فرواية مسرحية على طريقة مقلدي القدماء المدرسيين في عصر العواصف والاندفاع اعتمد جوته في مادتها على ما كتبهُ أحد قدماء فرسان الفرنجه عن تاريخ حياته اثناء القرن السادس عشر . وقد مات ذلك الفارس سنة ١٥٦٢ . وهذا جوته حذو حذو كثير فكان مبدعاً في الشكل . وقد بدأ عمله فيها لما كان في شتراسبورج ولو ان قصة ذلك الفارس ذي اليد الحديدية لم تطبع إلاّ بعد ذلك بكثير . ثم عاد جوته فغير وبدل فيها وأطلق عليها اسم (جتزفون برلشنجن : رواية مسرحية) وطبعها سنة ١٧٧٣ . ولما ذهب إلى ڤيمار بعدئذ أحدث بها بعض التعديل لتلائم المسرح . وموضوع القصة يوضح معارضة قدماء فرسان الدولة المستقلين للنظام الحديث

وتلحظ في جتز بطل الرواية أنهُ يمثل العصور الوسطى الذاهبة بما كان فيها من فرسان ذوي عزم صادق وحب للفضيلة . وترى سدد هذا بلاط قساوسة بامبرج وما كان بهِ من انقلاب تتمشى مع ما يدعوه الناس بالمدنية تلك المدنية الكاذبة المضللة . وكان جتز فارساً من الطراز القديم فلم يكن يعبأ بما انشئ من محاكم بل كان يحمي الضعفاء بنفسه ويثور ويثأر لكل فعل فاضح بكل ما أوتي من قوة وبأس شديد . ولكن كان ذلك العهد — عهد القوة — قد مضى وولت جتز هو النمذ الذي يسير في خطته الاولى ولم يخضع للنظم الجديدة فكان في ذلك القضاء عليه . ولما ذهب اليه جنود الدولة حاصروه في حصنهِ وتمكنوا من اسره . ولما وعد بالتزام السكينة اعيد الى حصنهِ ثانية واقسم على ذلك واسبح حراً طليقاً مرة اخرى . ثم قامت اضطرابات المزارعين ولكي يكبح من جماح الثائرين ويؤدي خدمة للحكومة اخذ على عاتقه قيادة

الامور فثارت عليه الثائرة وترك في يد اعدائه فرصة ضده فأصدروا امراً بحرمانه من كل الحقوق المكتسبة للقضاء عليه . وقد تم ذلك وجرح جتز واخذ اسيراً وقضى بقية ايامه في المطبق وهو واثق كل الثقة انه انقذ شرفه ولكنه كان يتألم كل الالم لعلمه بان عهد الفروسية قد انتهى وانقضى زمانه

والى جانب جتز ترى زوجه اليزابت وكانت امرأة مخلصة شريفة تعرف منها ام جوته تفسه فكأنما هو اراد ان تكون هي . ثم ترى اخت جتز المسماة ماريا وفيها شبه بفريدريكه صديقته السابقة . وفي مكان آخر تلمح (فايز لنجن) وكان احد رفقاء جتز في شبابه وكان قد ذهب يبغي خدمة اسقف بامبرج مشمولاً برعاية القيصر اراحة لضميره ولاستقامته . ولما شجر الخلاف بين جتز وذلك الاسقف سنحت لجتز الفرصة بان يأسر (فايز لنجن) وترف كيف يملك عليه حواسه ومشاعره وان يجذبه اليه حتى انه ترك خدمة الاسقف . ولقد اشتدت اواصر الصداقة الجددة وقويت عراها بينهما فخطب فايز لنجن اخت جتز المسماة (ماريا) . ولكنه عاد الى بلاط الاسقف وقد استغوته الدنيا وزخرفها وسحر خطيبته وخان صديقه . فكان جزاء تلك الخيانة وذلك التذبذب والتقلب نهاية مخزية كلها عار . فان عشيق زوجه (ادلهايد) المدعو (فرانز) دفعها لان تدس السم لزوجها . ويريك جوته من تلك القصة امثلة من بعض رجال الدين الذين انكبوا على شهوات الدنيا كاسقف بامبرج ورئيس دير (فولدا) وكان لا ينفك يشرب ويعربد . وترى القيصر رئيساً لا حول له ولا قوة يرغب في الخير والطيبات وما كان بقادر ان يقيم نظاماً

وفي الجملة ترى كل اشخاص الرواية قد ابدع تصويرها في صور حية كما اجاد تصوير ذلك العصر وما كان عليه . وقد اقبل الناس على تلك المسرحية بحماسة

اما (آلام الشاب فرتر) فقصة من قصص ذلك العهد (عصر العواصف والاندفاع) المعروف في الادب الالماني بمثابها احساس مريض . وهي قصة اعتمد في مادتها وخيالها على حياة شاب كان يدعى (وروسالم) ابن احد كبار رجال الدين واللاهوت ورئيس احدى الادبرة بالقرب من براونشفايج عرفه جوته لما كان في (فتزلار) وهو امين سر المفوض لبراونشفايج لونبرج . ومال الشاب لزوج احد اصدقائه واحبها ولكنه كان في حبه شقيا — حب كله اليأس والموت ختامه — ولما كان جوته في تلك المدينة (فتز لار) حدث له مع (شارلوتي بوف) مثل ماحدث لصاحبنا الشاب السالف الذكر . اما شارلوتي فكانت زوج امين سر مفوض (برم) المدعو (كستنر) . وكان هذا الرجل وزوجه قد أحبا شاعر المانيا الاكبر ولكن حب شارلوتي ملك عليه كل حواسه الا انه كان ميلاً عتيداً من دون ثورة وحبا من غير أمل فتركه قوي الاحساس مريضه . وقد وصف في تلك القصة أو في (اعترافاته العامة) كما كان يدعوها هو ما كان من

امره وما كان من ميوله المصابة، بطريقة شعرية على انهُ غيَّر وبدَّل في بعض الاسماء كما هي عادة الكتاب فاسمى (كستنر) بـ (البرت) ودعا زوجه (لوتي) . ولما رأى اليأس حليفه في ميله وحبه كان ما تراه في نهاية امره من انتحار بطله باطلاق الرصاص على نفسه . وبجعل القصة سهلاً غير معقد وقد كتبها جوته باسلوب محبوب كأنك تسمع الموسيقى من الفاظه وعبارته . وقد صوَّر عواطفه تصويراً مطابقاً للحقيقة

واذا رغبت ان تعرف اثر تلك القصة في معاصريه فلك ان تعلم ما كتب من قصص على نحوها وما دار حولها من اطالة وترجمة ونقد وتهكم وسخرية حتى ان بعضهم كتب قصة دعاها (اصدقاء الشاب فرتر) استرعى ما فيها من قدح لافت نظر جوته . ويمكن ان يقال ان كل ما كتب في ذلك يصحُّ ان يكون مراجع كبرى لحياة (فرتر ونهايته) . الاَّ ان جوته قد اصبح عند معاصريه شاعر فرتر . وتشبه كل من المأساتين (كلافيجو) و (ستلا) (جتر) و(فرتر) . وبطل المأساة الاولى رجل مخنث الطباع لاوفاء له على غرار (فاوست لنجن) السالف الذكر . اما المأساة الثانية فكأنها هي تكملة لبعض اجزاء قصة فرتر ولكنها اضعف منها لاتدانيها ترى العواطف تتجه فيها اتجاهاً غير خلقي

وانك ترى قدرة الشاعر الفكاهية في عدة من آثاره الصغيرة التي كتبها في ذلك العهد . ومن هذا القبيل روايته الفكاهية المسماة (آلهة وأبطال وفيلاند) و(السوق السنوية لبُلِنْدرز) فايلن وهي اضحوكة اخرى على غرار ما خلقه هانز ساكس من آثار ومؤلفات . ثم اخرى اسماها (ساتيروس) . وفي سنة ١٧٧٤ كتب رواية كلها تهكم وسخرية على احد رجال اللاهوت المدعو كارل فريدريش باردت وما كان له من آراء في المسيحية وجعلها موافقة لروح العصر . ولم يفت الشاعر ان ينشد بعض اغانيه في ليلي (اسمها اليزابت شونمان) وكان قد خطبها الشاعر زمناً

* * *

وطار اسم الشاعر في الآفاق فزاره بعض الافراد المعروفين في منزله بفرنكفورت ونزلوا في داره ضيوفاً معززين مكرمين مثل كلوبشتوك ولافاتر الذي كان واعظاً في تزيورش . كما زاره اثنان من جرافات (الجراف كونت) شتولبرج وقد ذهب جوته في صحبتهما الى سويسرا لاول مرة في مايو سنة ١٧٧٥ . وردَّ الزيارة للافاتر وتعرف هناك بصديقته بربارا شولتهس وبقيا على الصداقة ما شاء الله . وهي التي حفظت لنا اصول اثر من آثاره الذي اسماه (المعلم الاول) . ثم تعرف بولي عهد ڤيمار (كارل اوجست) وكان قد رآه قبل ذلك في فرنكفورت وفي كارلسروه . ولما تولى ذلك الامير زمام الحكومة في بلاده دعا جوته لڤيمار فسافر اليها ملبياً دعوته

(ستأتي البقية) الدكتور علي مظهر